ست وثلاثون سنة

د. محمد سليم العوا

هي عمر صلتي الوثيقة بمحمد بن أحمد الرشيد (!)

وصف هذه الصلة بالصداقة الحميمة يقصر عن التعبير عنها.

وإدراجها في عداد صلات الأخوة الحقة يسلبها عنصر الاختيار الذي يميّز الصديق عن الأخ الشقيق أو غير الشقيق.

وهي، وإن جمعت بين عناصر لا تقوم الصداقة إلا بها، وعناصر مما تثبت الأخوة بالمحافظة عليها، فإنها تضيف إلى هذه وتلك عنصر السعادة بالصحبة، والافتقاد عند الغيبة، والشعور الدائم بصدق المحبة، والثقة التي لا تتخرم في إخلاص النصح عند لزومه ولو لم يطلب، وفي الفرحة والاستبشار بالخير حين يكون، وبالإشفاق عند وقوع الابتلاء مع اليقين باختفاء المنحة التي تُشكر داخل المحنة التي قد تُستنكر.

... وهذا كله، وبعض ما لم يجرؤ القلم على ذكره، هو بعض حقيقة (المخالة) التي يقول في أهلها رسول الله ﷺ: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**» (رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة رضي الله عنه).

عرفت الدكتور محمد الرشيد سنة ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م عندما عاد من بعثته التي نال في نهايتها شهادة الدكتوراه من الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد عودته بقليل تولى عمادة كلية التربية بجامعة الملك سعود (جامعة الرياض يومئذٍ) خلفاً للدكتور صالح أزميرلي.

كنت مريضاً ألزم فراشي في منزلي بالرياض عندما عُيِّن محمد الرشيد عميداً للكلية التي كنت عضو هيئة تدريس في قسم الثقافة الإسلامية بها، وجاءني زائراً غير

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين سابقاً والمستشار بمكتب التربية العربي لدول الخليج سابقاً.

عائـد على غيـر موعد، الأخ العزيز والصديـق القديم الدكتور محمد بـن سعد الرشيد، عميـد كلية الشريعة الإسلامية في جامعة أم القرى آنئذٍ فلما استقر به مجلسه إلى جوار فراشـي قال لـي: لقد جئتك لأعرفك على رجل شهم كريم الأصـل جواد شجاع، من أهل المجمعة، عاد قريباً من الولايات المتحدة وعين بالأمس عميداً لكليتكم، وبما أنك مريض ولن تستطيع أن تكون في الكلية غداً لأقدم كلا منكما لصاحبه، فإنني أوصيك بالاتصال بـه والتعرف عليه، فستجـد فيه أكثر مما تتوقع (!)، وانصرف محمـد سعد الرشيد وأنا أعجـب مـن هذه التوصيـة، وأتساءل عن سرهـا.. لكني سرعان ما غلبنـي النوم من أثر المرض وأدويته (!).

بعـد يومين أو ثلاثة دخلت إلى غرفـة رئيس قسم الثقافة الإسلامية الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم، العالم النابه المحقق، رحمه الله، وسألته عن عميدنا الجديد فعرض علـيّ أن يصحبني إليه يعرفني عليه، ولكن ذلك لـم يكن، إذ سبقه أن خرجت من صلاة الظهـر فوجدت محمـد الرشيد على باب مسجد الكلية، وقد أحـاط به مدرسون وطلاب وعمـال يحادثهـم في أمور شتى، منهـا توسيع المسجد، فلما بدت لـي فرجة فيمن حوله قدمت نفسي إليه، فإذا بي أجد من الترحيب والبشاشة والإقبال ما لا يكون إلا من صديق قديـم عزيز لمـن طالت عنـه غيبتـه (!)، وأردت أن أنصرف فقال نحن معـاً، وصعدنا السلم إلى حيث مكاتب قسم الثقافة الإسلامية يقابلها مكتب العميد، فدعاني إلى مكتبه، وأخذنـا في أحاديث متنوعة يُسلمُ أحدها إلى الآخر، فوجدته يقول ويسمع، ويقبل ويأبى، ويستحسن وينتقد، ويبدأ ضيفه الذي لم يعرفه إلا منذ دقائق بالفكاهة الطريفة، ويسعد إذا بادله الضيف واحدة بواحدة.

وخرجـت من هذه الجلسة، التي استغرقت وقتـاً ليس بالقليل، وأنا موقن أنني كسبت صديقاً جديداً على غير توقع مني ولا سعي أستحق به ذلك.

عملـت معه في كليـة التربية، هو عميدها وأنـا عضو في مجلس كليتهـا من عضوين يختارهمـا المجلس مـن بين أعضاء هيئة التدريـس، ثم انتقلت بعـده بأسابيع قليلة إلى

مكتب التربية العربي لدول الخليج، عيِّن هو مديراً عاماً له، واختارني مستشاراً أول للمكتب. ثم تعاونّا في أعمال علمية وثقافية حاول أن ينشغل بها بعد أن أدَّى مهمته في المكتب خير أداء، ثم عاقه عن تلك الأعمال اختياره وزيراً للمعارف) التربية الآن (وهي الوزارة التي نيط به أمرها عشر سنين كوامل، وكانت علاقتنا العملية والفكرية طول هذا الوقت كما كانت قبله، وكما هي بعده، لحمتها وسُداها تلك الحال التي وصفتها في مطلع هذه السطور.

كان محمد الرشيد ولا يزال موطأ الأكناف لكل الذين يعملون معه، صغارهم وكبارهم، ورأيته كثيراً يسمع ما لا يجب من غلاظ النفوس، ويسمع منهم ما لا يجرؤون على قوله لغيره، فلا يرد سيئة بسيئة، بل يتصرف وكأن الذي يقال لا يقال له، ويعد بالخير ويسعى إلى صنعه، تخلصاً من سوء أخلاقهم، وليس لأن لهم حقاً يجب أن يأخذوه.

وكنت بحكم عملي في مكتب التربية أكثر أعضاء المكتب تعرضاً لمعرفة الشكاوى التي يبديها العاملون، وكان في المكتب بضعة نفر يسعون إلى التعريف بمن حُرِمَ حقاً له، أو ظُلم في صغير من الأمور أو كبير، فلما حملت إلى محمد الرشيد شيئاً من ذلك إلا أنهاه في لحظته، وكثيراً ما كان يسأل، بل لعله كان يسأل دائماً، ماذا يقول النظام؟ ماذا تقول اللائحة، ماذا ترى؟ ثم لا يأخذ إلا بالأرفق بالناس والأصلح لهم.. وكان جزاء ذلك من العاملين معه مزيد عطاء وفرط إخلاص في العمل، جعل الذي ينجز في سنة يتم إنجازه في شهور معدودة، حتى قال لي وزير ذو مكانة خاصة في مجتمعه: (أردنا من الرشيد أن يمشي بنا الهوينا، فمضى بنا على الرابع)!!، ولم يكن هذا عمل الرشيد لكنه كان نتيجة عمله مع زملائه ومرؤوسيه، وهي نتيجة لم يكن غيرها ممكناً، ألم تر إلى قول الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

تعلمت منه أمرين أنتفع بهما حتى الآن: كان إذا تحدث أحد فتداخلت في كلامه الموضوعات، وتشابكت القضايا، وغامت عليه الأفكار قال لي: إنه (يدخل عباس في دباس!) فأتسلَّى بقوله هذا عما أجده من غم الاستماع إلى كلم لا يَخرجُ منه مستمعه بكبير نفع أو صغير (!).

وكان يهشُّ لمـن يلقاه ويُحسـن إليه بالقول، وقـد يكون له حاجـة لا يستطيع محمد الرشيـد قضاءَها، لكنه لا يتـرك مجلسه، أو مكان وقوفه مع الرشيد، إلا وهو راضٍ مؤمن أن الرشيد لم يُقصِّر، وإنما شأنه كما قال الأول:

لا تلم كفي إذا السـيف نبا صح مني العـزم والدهـر أبى!

وفـي هـذه الأحوال كثيراً مـا قال لي: يا أبـا أحمد (المعروف شـيء هين، وجه طلق ولسـان لين) فانظر رعاك الله إلى هذا الفهم الفطري الجميل لـ (المعروف)، وإلى أثره فيمـن يعملون معك أو يلوذون بك، تدرك كيف كان العمل مـع محمد الرشيد متعة حقـة. ومحمد الرشيد وإن كان من أهل الحواضر العريقة، فيه بداوة حسنة مما وصفها المتنبي بقوله:

حسـن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب(!)

دخلت عليه مرة في مكتبه وهو عميد لكلية التربيـة، فوجدته يقول لضيف عنده: (أنا يعـز عليَّ ألا أجيب طلبـاً لواحد من بني جنسي...) وذكرته بأنه قـد عوفي من العصبية التـي يُعاني من آثارها كثير من إخوانه وأبناء وطنه، وأنه لا يُعاني من عقدة النقص التي تصنـع الاستعلاء الـكاذب، حتى يظن نفسه وأصحابه من جنس غير جنس سائر الناس، وقلـت كلاماً كثيراً نسيتـه الآن، فقاطعني ليخبرني أن هذا التعبير مستعمل، في لغة نجد الدارجة، للإشـارة إلى القبيلة والعشيرة والبطن، أو وحدة الأصل بوجه عام، ولم يردني ذلك عن عتابي، ولم يسلم لي به الرشيد، لكنني لم أسمعه يستعمل هذا التعبير قط منذ ذلك اليوم.

مـن أهم الأمور التي جعلت محمد بن أحمد الرشيد مبرَّزاً في كل عمل تولاه أنه يولي اختيـار الرجـال عنايته الفائقة. وهو على خلاف كثيرين لا يختـار إلا الأكفاء المتفوقين الأعـلام، ليعينـوه فيما يريد إنجازه، ولا يضايقه، بل كان يظهـر سروره وغبطته أن يكون إلـى جـواره أناس خبرتهـم أكبر من خبرتـه، وتجربتهم أوسع من تجربتـه، وكان يختار هـؤلاء ثم يستجيب لنصحهم ويأخـذ برأيهم وينزل عند مشورتهـم.. نظرت وأنا أحاول

كتابة هذه الكلمات في ثَبَتِ الذين تعاون معهم مكتب التربية في عهد إدارة محمد الرشيد لـه، فوجدته يضم سبعة وستين وأربع مئة مـن العلماء العرب الكبار المرموقين من بلاد العـرب كافة تقريبـاً، وثلاثة عشر ومئتين مـن العلماء الأجانب العامليـن في الجامعات الغربية والمؤسسات الدولية، صحيح أن بعض هؤلاء من أصول عربية أو إسلامية، لكنهم جميعاً كانوا يمثلون الثقافة الغربية في فكرهم وتدريبهم وتجربتهم العلمية والعملية.

ولا ريـب أن مؤسسة تستعين في نحو عشر سنين بمثـل هذا العدد الهائل من العلماء والباحثيـن والمفكرين (٦٨٠علمـاً) جديرة بأن تنجز ما نجح مكتـب التربية العربي في إنجـازه عندمـا ضمَّنا فريـق العمل فيه مع الرشيـد، وفي المدة نفسهـا زادت إصدارات المكتـب من الكتب والبحـوث المستقلة والدوريات المتخصصة علـى ستين ومئة إصدار في جميع المجالات التي يشملها نشاط المكتب أو تدخل في اهتمامه.

كانـت إحدى فضليات عائلتنا إذا سئلـت عن كيفية صنعها طعاماً استحسنه ضيوفها تقـول (صنعتـه بالمحبـة)، وأستطيع أن أعزو إلـى هذه المحبة كل أو جـل النجاح الذي حققـه الرشيد في ولايتـه كلها، وأن أعزو إليها استمرار صلاتـه القوية الوادة بمئات من الناس في كل مكان عمل فيه أو عاش.

والحمد لله رب العالمين..